التعبير اللغوي

أ.م.د. عبد الوهاب حسن حمد
كلية الدراسات القرآنية- جامعة بابل

إن التعبير اللغوي يحظى بمزيّة خاصة في التعبيرات الإنسانية والكونية العامة ، لأن أداته المسموعة أو المرئية ترمز إلى إشارات مختلفة بحسب ما يحيطها ، وقدرة مُستعملها ، وتباين الغرض منها زماناً ومكاناً وغايةً ، لأنه فردي ، والأفراد مختلفون ، كما أن المُعبّر تختلف أغراضه بحسب أحواله وثقافته ، فإنه لا تكاد تسمع منطقين متساويين في النغمة والكيفية والشكل مع تطابق المراد ، لأن النطق عضوي في الطبيعة البشرية ، وظيفته تلبية الحاجات المختلفة للمُنتج والمُتلقّي ومن يحضرهما ، لذلك كان التعبير اللغوي وسيلة للتواصل الجماعي ، فإذا قُيّد بالخط أو صُوّر بطريقة مرئية انتقل من المحسوس المؤقت إلى الدائم ، وإن اختلفت صوره ، فإنه يُشير إلى عالم مفتوح من المعاني ، لأنها الرابطة له بالموجود الواقعي ، لذلك كانت اللغة مُشتركة حاضرة دائماً مع كل ظرف ، قابلة للتغيير بحسب إبداع أصحابها ، لأن الإبداع فردي ، وهو بدوره يخلق المُبدعين ، وهكذا تتجدد الاتجاهات الفنية التي تستخدم الألفاظ وسائل تعكس قوانين الصور والأشكال لخلق حقائق مختلفة عن الواقع ، لأن التأمّل في الذات والعالم المحيط بها يضع الفكر أمام موضوع وإن بدا بديهياً مادة لمُدركات جديدة ، لأن التعبير عن شيء يُعدّ خلقاً جديداً له ، بحسب تعيين وتحديد وهوية المُعبّر ، إذ يتكيّف في التعبير الوجدان الفردي ليفهم ذاتيته وليظهر مكنوناته وليتصل بشعور الآخرين ، فليس بمقدور الإرادة الفردية القيام بمهامها بغير الصور الجسدية أو الكلامية ، وهذه تقوم بربط الأشياء ، فقد ألهم الله الإنسان الخلق اللفظي للعوالم التي يراها بمدركاته العقلية والوجدانية بعد أن استطاع ربط فكره بمشاعره الذاتية ، وبعد أن سمّى الأشياء للفصل فيما بينها ، ثمّ حركها بأشكال تتجاوب مع فرديته ونظرته الخاصة للحياة والعالم في نظام لغوي مبني على المشترك مع الآخرين ، من حيث عناصره العرفية ، حتى يكون مفهوماً لهم، ولكن بطابع فردي يحمل شحنات دلالية تشير إلى مراده ، وترمز إلى غاية فردية بلباس جماعي ، مصوّرة بشكل يتضمن صلة معقولة تربطه بفكرة ذاتية تؤدي إلى وصول رسالة ما ويحث على تعبير أخر بشكل يتناسب وقدرة المتلقي ، فإن الرموز الإشارية لها القدرة على تجاوز ماديتها المصورة لها إلى دلالات معنوية بما تحمل من علامات موجهة للسلوك الفردي والجماعي ، لأن التواصل يستلزم التعبير المبدع بنسق من أنماط الوعي الإنساني الفردي والجماعي في صراعاته الحياتية مجسدة بأساليب التعبير المتنوعة بحسب ربط الكلمات من أسماء المحسوسات بأسماء المعاني ، إذ تتفاعل داخل الاتساق الموجهة لحركاتها لخلق التفاهم ، لأنها تضفي على مفرداتها ظلالاً من المعاني ، ليست ثابتة فيها ، فلكل شكل تعبيري معانيه الصرفية والنحوية والبلاغية ، بدليل التقديم والتأخير والإضمار والإظهار والتنكير والتعريف والذكر والحذف والحقيقة والمجاز والتعريض والتصريح بأدوات التعليم التي وضعها الله تعالى في الإنسان ، لأنه يولد جاهلاً بتسخيرها لصالحه ، كما قال تعالى { وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل 78] ، فكان تعطيلها مانعاً عن التعبير لغرض التواصل اللغوي ، وسلامتها قوةً ومنعة ، كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً } [الروم 54] ، فلا يستوي الأبكم والناطق في المكانة والقدر ، فقد { ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النحل 76] ، لذلك كان الإنسان بحاجة إلى فضل تثقيف وتهذيب لسلوكه بالتعليم ، وهو مزية التكريم والنعمة الإلهية الكبرى بدليل تقديمه على خلقه في قوله تعالى { الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن 1 – 4] ، فقد جعله مميزاً قادراً على خلق التعبيرات التي تمكنه من تحصيل العلوم والنظر فيها وحرمانه منه إماتة له وإضلال لقدراته فيسخرها لهلاكه ، كما قال تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} [الروم 52] ، فقد جعل الإنسان خليفة بقدرته البيانية على تسمية الأشياء والعلم بالأسماء ، وهي العلامات الدالة على مدلولات متعارفة في بيئة معينة ، وهذا العلم منبئ بكل معرفة ، فلا معرفة تمر بدون معرفة باللغة ، لذلك كرم الله تعالى الإنسان فجعله قادراً على الإبداع اللغوي الذي بهر به ملائكته فظهر عجزهم فيه فاعترفوا بقصورهم في الخلق اللفظي استحضاراً واستظهاراً كما قال تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ

بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة 30 – 33] .

فكان تعليم اللغة أصل الثقافات وأصل الديانات والفنون ، والمقصود باللغة الميل إلى النطق وتسمية الأشياء ، لأن " لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه .. واللغة أخذت من هذا ، لأن هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين واللغو : النطق . يُقال هذه لغتهم التي يلغون بها ، أي ينطقون " [1] .

والميل ليس ثابتاً على حال واحدة أو شكل بسيط أو نمط منعزل عن الحياة ومتغيراتها ، فكان التعبير ميلاً نحو إظهار المخفي والمحسوس سمعاً أو بصراً ، إذ حصل به الميل عن الصمت فاستطاع الإنسان أن يصنع بالألفاظ إبداعا في خلق جديد ، لأن التعبير عن الأشياء ليس نسخاً لها بل رؤية خاصة تجعلها خلقاً آخر يشي بحقيقة أخرى ، وقد تكون حقيقة مجهولة فيظهرها التعبير وكأنها حقيقة واقعة ، لذلك فإن التأمل في التعبيرات اللغوية يعد فلسفة وعلما ، وطريقاً يسلكه قادة الفكر وصانعو الثورات والنحل والمذاهب وقد نهى الله تعالى عن الافتراء وهو افتعال شيْ غير حقيقي واختلاق ، لأن " افترى الكذب يفتريه اختلقه وفي التنزيل العزيز { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاه } أي اختلقه وفري فلان كذا إذا خلقه ، وافتراه : اختلقه " [2] . وخلق الشيء إيجاده وإحداثه بعد أن لم يكن ، وذلك بالنطق به ، وإن كان النطق حقيقة لا شك فيه ، ولكن المنطوق في التعبير يحتوي على شيْ قائم بلا دليل لأنه غير حقيقي لذا شبهت الحقيقة بالنطق لوقوعه في قوله تعالى { فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } [الذاريات 23] ، " أي مثل نطقكم ، كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك " [3] . والنطق إخراج الكلام وأداته اللسان لغرض التواصل المباشر المبين ، لأن " نطق : تكلم والمنطق : الكلام والمنطيق البليغ وكلام كل شيْ : منطقه ومنه قوله تعالى { عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ } [النمل 16] ، وتناطق الرجلان : تقاولا وناطق كل واحد منهما صاحبه : قاوله " [4] . وكل لفظ قال به اللسان يسمى قولاً، كما سمي كل تعبير عن رأي أو معتقد قولاً ، لأن " الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال ، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول سميت قولاً ، إذ كانت سبباً له ، وكان القول دليلاً عليها كما يسمى الشيء باسم غيره إذا كان ملابساً له ، وكان القول دليلاً عليه ، فإن قيل : فكيف عبروا عن الاعتقادات والآراء بالقول ولم يعبروا عنها بالكلام ، ولو سووا بينهما أو قلبوا الاستعمال فيهما كان ماذا ؟ فالجواب أنهم إنما فعلوا ذلك من حيث كان القول بالاعتقاد أشبه من الكلام . وذلك أن الاعتقاد لا يفهم إلا بغيره ، وهو العبارة عنه ، كما أن القول قد لا يتم معناه إلاّ بغيره ، ألا ترى أنك إذا قلت : قام ، وأخليته من ضمير ، فإنه لا يتم معناه الذي وضع في الكلام عليه وله ، لأنه إنما وضع على أن يفاد معناه مقترناً بما يسند إليه من الفاعل " [5] ، وإنما شابه القول الكلام ، لأن الكلام يشترط فيه الإفادة التامة بخلاف القول والقول لا يشترط فيه ذلك ، كما أن الكلام يقطع فيه بالصدق بدليل أن القرآن كلام الله ، فإذا " قطعنا بصدقه تحقق كونه كلاماً ، لأن الصدق من صفات الخبر ، والخبر قسم من الكلام " [6] ، فما كان مطابقاً للواقع فهو أنفع في الاستخبار ، فإن " عيسى عليه السلام كلمة الله ، لأنه لما انتفع به في الدين كما انتفع بكلامه سمي به كما يقال : فلان سيف الله وأسد الله " [7] ، وذلك بخلاف القول لاحتمال الزيادة والنقص فيه ، وهو بذلك يخرج عن العبارة ، لأن " العبارة عن الشيء هي الخبر عنه بما هو عليه من غير زيادة ولا نقصان .. وسميت العبارة عبارة ، لأنها تعبر المعنى إلى المخاطب .. والفرق بينهما وبين القول أن القول يقتضي المقول بعينه مفرداً كان أو جملة أو ما يقوم مقام ذلك ولذلك تعدى تعدياً مطلقاً ولم يتعد إلى غير المقول والعبارة تعدت إلى معنى القول بحرف فقيل عبرت عنه " [8] . وكذلك صياغة التفعّل من الكلام والقول مختلفة الدلالة ، فإن تكلم : مطاوع لإرادة النطق في حين أن تقول : مطاوع لإرادة الإختلاق ، ففي قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ } [الطور 33] ، قال الزمخشري: " (تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه " [9]، وفي قوله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ } [الحاقة 44] ، قال : " التقول افتعال القول ، لأن فيه تكلفاً من المفتعل .. والمعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً " [10] . والتقول هو التفعل وليس الافتعال ، ولعله

---

[1]() اللسان : مادة (لغا) .
[2]() اللسان : مادة (فرا) .
[3]() أنوار التنزيل : 691 .
[4]() اللسان : مادة (نطق) .
[5]() اللسان : مادة (قول) .
[6]() شرح الحدود النحوية : 39 .
[7]() اللسان : مادة (كلم) .
[8]() الفروق اللغوية : 24 – 25 .
[9]() الكشّاف : 4 / 25 .
[10]() الكشّاف : 4 / 154 – 155 .

عبر عن المعنى ولم يلتزم بالوزن ، لإظهار معنى التكلف وليس المطاوعة بدليل التاء المزيدة للدلالة على سرعة الإجابة وتلبية المراد بلا تردد من غير تدبر ونظر وبلا استدلال بين كما قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ} [النحل 116] ، " أي ولا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل ووصف ألسنتهم بالكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا " (11) .ولقد أعطى الله تعالى الدليل بالقسم والإضافة والوصف لإثبات الرسالة بقول رسوله الكريم (ص) في قوله {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة 38 – 42] ، وهو " إقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر ، وغير مبصر .. إن هذا القرآن (لقول رسول كريم) ، أي يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله (وما هو بقول شاعر) ولا كاهن كما تدعون ، والقلة في معنى العدم : أي لا تؤمنون ولا تذكرون البتة ، والمعنى ما أكفركم وما أغفلكم " (12) . ولا عجب فقد {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [النحل 4] ، فإن النطفة " جماد لا حس لها ولا حراك سيالة لا تحفظ الوضع والشكل (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ) منطيق مناظر مجادل مبين للحجة " (13) ، فقد انحرف عن الطريق المستقيم حتى تجرأ على خالقه ، والله تعالى عليم بحاله لقوله { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل 103] ، وقيل " اللسان اللغة .. والمعنى : لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان (أعجمي) غير بين (وهذا) القرآن (لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) ذو فصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم " (14) ، فإن اللسان بخلاف اللغة ، لأنه غايتها ودليل المحاجة والإقناع والدفاع بدليل قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [إبراهيم 4] ، لأن التواصل يكون باللسان لا باللغة، لأن " اللسان : جارحة الكلام .. ويقال : رجل لسن بين اللسن إذا كان ذا بيان وفصاحة والإلسان : إبلاغ الرسالة وألسنه ما يقول أي أبلغه وألسن عنه : بلغ .. واللسن : الكلام واللغة ولاسنه ناطقه ولسنه يلسنه لسناً : كان أجود لساناً منه " (15) . إن الغاية من نطق الألفاظ أن تصير لغة ومن وظيفة اللغة أن تكون في نطاق لسان لغرض البيان ، لأن " البيان في الحقيقة إظهار المعنى للنفس كائناً ما كان فهو في الحقيقة من قبيل القول " (16) ، ولكن ليس أي قول ، بل هو تعبير منظم خلاق يجسد بشكل محسوس العلاقات الداخلية والخارجية للفرد ، ويرتبها بنسق مترابط تتجلّى فيه القدرات العقلية والشعورية ، في بناء تتفاعل فيه المحسوسات والمعنويات بدلائل أسمائها المنتظمة فيه بوشائج تكشف الحقائق بصورة جديدة ، تمثل رؤية إبداعية قد أودعها الله تعالى في الإنسان ، إذ ألقى في روعه تسمية الأشياء للفصل فيما بينها وألهمه قدرة الخلق اللفظي لها بأشكال تنبض بالحياة ، وهي عماد الفهم والإفهام فصنع منها رموزاً تشير إلى عوالم يتكيف فيها وجدانه ويتجلى فيه حسه ويتحقق فيها فكره فيتم تواصله بشعور الآخرين حتى بعد فنائه إذ لا تموت صناعته بموته ، بل تصنع مبدعين يبدأون من حيث انتهى ، فان البيان تعبير لغوي فني يفصح عن سر الوجود ، لأنه دليل كل أمر خفي فيه ومفسر لغموضه وكاشف عن مصيره وموصل لحاضره بماضيه ومنبئ عن مستقبله ، ومظهر لماهية المنتج وهويته ومثبت لوجوده لأنه صناعة مميزة خاصة لا تضاهيها أية صناعة أخرى فإن " معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله ، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة ، ولو لم يحبب الفصاحة إلا قول الله تعالى { الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن 1 – 4] لكفى ، والمعلومات كثيرة ومنن الله تعالى جمّة ، ولم يخصص الله من نعمه على العبد إلا تعليم البيان ، وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ } [آل عمران 138] ، وقال تعالى { تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ } [النحل 89] ، ولحذف الواو في قوله تعالى { عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } نكتة علمية ، فإنه جعل تعليم البيان في وزان خلقه ، وكالبدل من قوله { خَلَقَ الْإِنسَانَ } ، لأنه حي ناطق وكأنه إلى نحوه أشار أهل المنطق بقولهم في حد الإنسان : حيوان ناطق . ولا شك أن هذه الصناعة تفيد قوة الإفهام على ما يريد الإنسان ويراد منه ليتمكن بها من إتباع التصديق به وإذعان النفس له " (17) . فإن الله تعالى خصّ الإنسان بالقدرة على الصناعة اللفظية للتعبير عن كينونته ، فجعله مؤنساً بحديثه ، وفضّله على غيره بالتمكن في الصناعة ، فقال تعالى { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } [الإسراء 70] ، فقد " كرّمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة " (18) ، فألهمه الإفهام بالنطق والإشارة والخط وحسن الصنعة ،

---

(11) أنوار التنزيل : 368 .

(12) الكشّاف : 4 / 154 .

(13) أنوار التنزيل : 351 .

(14) الكشّاف : 2 / 429 .

(15) اللسان : مادة (لسن) .

(16) الفروق اللغوية : 172 .

(17) البرهان في علوم القرآن : 1 / 312 .

(18) الكشّاف : 2 / 458 .

كما ألهم النحل في قوله تعالى { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [النحل 68] ، أي " ألهمها وقذف في قلوبها .. وإنما سمى ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة "(19) ، فأودعها علماً بالصنعة ، كما أودع الإنسان القدرة على خلق المعاني بالتمكن في الصناعة اللفظية ، فلم يقتصر على الصنع المادي كالنحل بل تجاوز ذلك إلى آفاق أبعد من أدوات الصناعة وهي القدرة على إيجاد الصلة المدركة بين الرموز والعقل ، إذ جعلها فكره ومشاعره وآماله وآلامه وشقاءه وسعادته ، فإنها قادرة على الارتفاع والارتقاء من المحسوس إلى الرمزية ، ومنها إلى فكر ووجدان غيره وتمتلك خصائص الكائن الحي بالعلاقات والروابط والتأثير ، وتزيد عليه بامتزاجها بوجدان وفكر جنسه البشري ، وبقائها فاعلة بعد فنائه بتواصل بديع فريد من نوعه زماناً ومكاناً لا يعرف الموانع والحواجز والقيود ، موضوعاً في الحياة الأولى والآخرة ، بدليل قوله تعالى { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف 49] ، لأنه تعالى علمه البيان وهداه بإنزال الكتاب ولكنه أبى إلا أن يكون مخاصماً مجادلاً ، فقد قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }[يس 77] ، { وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [الكهف 54] { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [الكهف 56] . لذلك حكى الله تعالى شكوى رسوله (ص) بقوله { وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورا } [الفرقان 30] ، فقد " قيل هو من هجر إذا هذى : أي جعلوه مهجوراً فيه فحذف الجار وهو على وجهين : أحدهما زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأولين ، والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقوله تعالى { لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} [فصلت 26] ، ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول ، والمعنى : اتخذوه هجراً "(20) ، فلم يكتفوا بترك الإصغاء إليه بل أرادوا أن يصدوا الناس عن الإستماع إليه باللغو فيه لكيلا يصل بالناس إلى الحق المنشود ، مبشراً ونذيراً ، كما قال تعالى { إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ } [الزمر 41] . فقد أحكمت معانيه وبنيت على الحق والصدق بشكل يناسبها في التخير والإصابة " لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم ملتبساً بالحق (فمن اهتدى فلنفسه) إذا نفع به نفسه (ومن ضل فإنما يضل عليها) ، فإن وباله لا يتخطاها (وما أنت عليهم بوكيل) وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت "(21) ، فما عليهم سوى تسخير أدوات التعليم لتحقيق التواصل فلا يعولوا على التقليد ، كما قال تعالى { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء 36] . أي " ولا تتبع ولا تكن في إتّباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال ، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً ، لأنه إتّباع لما لا يعلم صحته من فساده "(22) ، لأن المقلد قد يكون طاغياً ظالماً ، كما قال تعالى وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر 17 – 18] ، وهم لا يختارون الأحسن والأفضل بما يناسبهم ، إلا إذا فهموا القول ، وذلك لا يكون إلا بمعرفة جوهر اللغة وإدراك ما تشير إليه رموزها ونظامها المعبّر عن المراد ، فاللغة ببيانها كانت المعجزة الأولى التي عبر بها الإسلام عن رسالته ، لأنه دين كتابي يتضمن تعبيرات للذين { يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } وللذين { يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة 75] ، وللذين { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ } [النساء 46] ، وللذين { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ } [المائدة 41] ، وكذلك للذين أدركوا أن الغلبة من نصيب التعبير المنظم للفكر والحياة ، لا يثبت على حال لإفصاحه عن تاريخ جارف من الأحداث والعواطف في السلم والحرب والعلم والجهل والرقي والتردّي ، لأنه أساس ديانات الكتب المنزلة والثورات التي طبعت تاريخ الإنسانية ، فهو يحيا منغمساً في المجتمعات البشرية غير منفصل عنها ، وهي تأبى الانفصام عنه ، " ولن تتغير نظرتنا عن الكون والحياة إلا عندما نصل إلى التعبير بوضوح ودقة عن الكون والحياة ، أي إلا إذا قمنا بثورة لغوية لسانية ، إذ ذاك ، وإذ ذاك وحسب يتغير موقفنا ووضعها فنخرج من عالم الاستهلاك لندخل عالم الإنتاج "(23) .

إن التعبير الخلاق يصنعه العقل البشري المُحلّل الوثّاب إلى تعزيز كرامة الإنسان ، والذي يسعى إلى إحداث أنظمة تُصان فيها الكرامة ، وتتجلى فيها تقدير الآثار التي يبدعها على مر العصور بأشكال تخلق وتحافظ

---

(19) أنوار التنزيل : 360 .
(20) الكشّاف : 3 / 90 .
(21) أنوار التنزيل : 612 .
(22) الكشّاف : 2 / 449 .
(23) تأملات في اللغو واللغة : 102 .

وتتجدد باستمرار الحضارة الإنسانية ، وهي التي تتوارثها الأجيال فتستغل النتائج من التجارب والمعارف التي شحنت في صورها المُعبّرة لتحقق علاقة الحياة باللغة فالدين لغة والاقتصاد لغة والفن لغة والعمل لغة ، لأنه لا يتم إلاّ بالتواصل اللغوي، فلا حياة بغير تعبير يبعث فيها الروح لتنمو وتتغير بحسب الفهم والإدراك، وأساسه التعليم اللغوي بدليل حرمان الصم والبكم منه لذلك كان السمع والبصر واللسان والفؤاد دليلاً على أن اللغة من الإنسان أكثر مما هي له ، لأن الإنسان لسان ، لأنه أداة البيان ومظهره بأساليب تعبيرية مختلفة تبعاً لقدراته العقلية والوجدانية والتي تمكنت فيه بفعل السمع والبصر والقلب ، ولولا فعلها لما كان شيئاً يذكر يدل على ذلك قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ } [الأنعام 46] ، أي " أصمكم وأعماكم {وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم} بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم { مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ } أي بذاك أو بما أخذ وختم عليه أو بأحد هذه المذكورات " [24] . فإن الضمير العائد على واحد مما ذكر يدل على أنها تتفاعل بانسجام وتعطيل واحد منها يكفي ترهيباً لأعتى الطغاة ، إذ تنهار بأخذه كبرياؤه فضلاً عما يلحقه به من الصغار وضعف المشاركة الاجتماعية لأن القوى العقلية والقدرات الشعورية والإرادات النفسية لا تتجلى إلا بالتعبير ولا تفهم معانيه إلا بجملة من العمليات الفكرية والوجدانية ، إذ " يتخيل الفكر الأشكال (والعالم كله أشكال) ويدخل التخيل على الأشكال رمزية فتتكون لدينا صور . أما الذاكرة فتحتفظ بشيْ يبتعد عن الشكل (بقدر ما يقترب من الصورة) ويبتعد عن الصورة ، لأنه في صميمه شكل هذا هو المعنى ، نعني شيئاً بين الشكل والصورة ، أما عملية التذكر فجهاز تجاذبي حيث لكل معنى ميل طبيعي للتداعي مع معانٍ أخرى إذ لا حقيقة للمعنى المنفصل " [25] إن المعنى بوصفه تصوراً ذهنياً غير ظاهر يُخالف في حقيقته الشكل، لأن الشكل يعبر عن الصلة بين الرمز والذهن ليكون مفهوماً ومدركاً لأبناء اللغة الواحدة وترابط الرموز ، وإن بدا في ظاهره شكلياً إلا أنه صادر عن ترابط ذهني ، وهو غير ثابت لاختلاف التصورات الذهنية التي يشحن بها التعبير الواحد ومفهوماته المتصورة هي التي تربط مدركاته مع بعضها إذ يتم التنسيق فيما بينها بحسب قدراتها ولا يمكن لأيّة قدرة منها لأن تؤدي مهامها بمعزل عمّا تنهض به الأخريات ، في تلاحم بتناغم مع الحدث ، فتتولد المعاني الرابطة للأشياء في الوجدان أولاً ثمّ تتجلى بصور رمزية أو جسدية تنفعل بها الذات المنتجة والمتلقية معاً فيتم التواصل الشعوري والذهني والتقارب أو التباعد فرب تعبير يحمل كبيرة فيؤدي إلى الهلكة لصدوره عن ظن أو جهل ، كما قال تعالى { مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً } [الكهف 5] ، لأنه " ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه ، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم بل يكظمون عليه تشوراً من إظهاره ، فكيف بمثل هذا المنكر فإن قلت : إلام يرجع الضمير في كبرت ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها " [26] .ولزيادة الإفهام بقيمة التعبير والتذكير بخطره يضرب الله تعالى الأمثال لتصوير المعاني وتقريب لها من المحسوسات لتدرك فقد قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ } [إبراهيم 24 – 27] .وقد " اختلف في الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن والكلمة الخبيثة بالشرك بالله تعالى والدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق ولعل المراد بهما ما يعم ذلك فالكلمة الطيبة ما أعرب عن حق أو دعا إلى صلاح والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك { بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ } الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا يدهشهم أهوال يوم القيامة { وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ } الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد فلا يهتدون إلى الحق ولا يثبتون في مواقف الفتن " [27] .والإبانة عن ذلك لا يكون إلا بالتعبير عنه ألم تكن بشارة مريم كلمة ومعجزة ابنها التكليم في المهد كما قال تعالى { إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران 45 – 46] ، و " الوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس " [28] ، بل القدر والشرف ، لأنه كلمة الله وروح منه ولأنه الكليم من غير اكتساب أو تقليد ومحاكاة كغيره ثم الإنباء بالمغيبات من أحوال الناس كما جاء في قوله تعالى { وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ } [آل عمران 49]، ثم في تعليمه ليكون وجيهاً بدليل العطف في قوله

---

[24]() أنوار التنزيل : 175 .
[25]() تأملات في اللغو واللغة : 47 .
[26]() الكشّاف : 2 / 472 .
[27]() أنوار التنزيل : 340 .
[28]() الكشّاف : 1 / 430 .

تعالى { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ } [آل عمران 48] ، فإن المنزلة الرفيعة في تعليم الكتابة بعد أن ألهمه النطق المصدق لرسالة من سبقه أو علمه " جنس الكتب المنزلة وخصّ الكتابان لفضلهما " (29) ، لأن الكتاب " أسم لما كتب مجموعاً والكتاب مصدر " (30) ، أي كل ما خط وهو المكتوب ، لأن المصدر فيه معنى الفعل ، فـ" المصدر إذا أُقيم مقام المفعول فإنه يجوز جمعه كما يجمع الكتاب على كتب " (31) ، كما آثر موسى (ع) على أهل زمانه بتكليمه ، فقد قال تعالى { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي } [الأعراف 144] . وقد خص الله تعالى موسى (ع) بمنتهى مراتب الرفعة في قوله تعالى { وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً } [النساء 164] ، " فأعلم عز وجل أن موسى كلم بغير وحي ، وأكد ذلك بقوله { تَكْلِيماً } فهو كلام كما يعقل الكلام لا شك في ذلك " (32) ، و " لم يلزم من تخصيص موسى (ع) بهذا التشريف الطعن في نبوة سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكذلك لم يلزم من تخصيص موسى (ع) بإنزال التوراة عليه دفعة واحدة طعن فيمن أنزل الله عليه الكتاب لا على هذا الوجه " (33) . وقد فضل الله تعالى محمداً (ص) بإلزام الناس جميعاً إلى يوم القيامة باتباعه ، كما جاء في قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف 158] ، و " النبي (ص) لم يكن يكتب ولا قرأ التوراة والإنجيل ، ولا عاشر أهلهما فإتيانه بما فيهما من آيات الله العظام ومحال أن يجيء مُدّعٍ إلى قوم فيقول لهم ذكري في كتابكم وليس ذلك فيه ، وذكره قد أنبا من آمن من أهل الكتاب به " (34) ، وهم { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ } [الأعراف 157] ، و " إنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد { الأُمِّيَّ } الذي لا يكتب ولا يقرأ وصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته { الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ } أسماً وصفة " (35) ، فإن المتدبر في التعبير اللغوي المنطوق والمقيد بالخط يدرك مقام اللغة من الإنسان ، فإنها سمعه وبصره ووجدانه وكيانه ومكنوناته ، فهي الوصفة والشهادة والحكمة والرفعة والديمومة والصيرورة والصلة والرسالة والأمانة والعاقبة وفضلى الفضائل ، والفكر ، والموضوع ، إذ " لا وسيلة إلاّ اللغة نتأمل في اللغة ، باللغة ، فاللغة على هذا موضوع التأمل ، وفي آن واحد وسيلة كل تأمل . اللغة ليس شيئاً خارجاً عنا تذوته ، ولكنه من مكونات الذات ، بُعْد من أبعادها العُمقيّة " (36) ، لأن التعبير اللغوي في حقيقته تعبير نفساني تتجلى فيه بواطن النفس الإنسانية ومعتقداتها ونباهتها وفطنتها وصحتها وسلامتها كما تظهر فيه غفلتها وجهلها وسفاهتها ومرضها ، يدل على ذلك قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [البقرة 6 – 18] ، فإنهم " لما سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك ، ومعنى { لاَ يَرْجِعُونَ } أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها ، تسجيلاً عليهم بالطبع ، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه ، ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف وإيضاحاً غبّ إيضاح ، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع ومما ثنى من التمثيل في التنزيل قوله { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ

---

(29) أنوار التنزيل : 74 .

(30) لسان العرب : مادة (كتب) .

(31) التفسير الكبير : 11 / 111 .

(32) معاني القرآن وإعرابه : 2 / 133 .

(33) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : 11 / 111 .

(34) معاني القرآن وإعرابه : 2 / 381 .

(35) أنوار التنزيل : 224 .

(36) تأملات في اللغو واللغة : 44 .

بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} [فاطر 19 – 22] ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها كقوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الجمعة 5] ، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة وتساوي الحالتين عنده " [37]. إن نظم الأصوات المختلفة في مخارجها وصفاتها في هيأة كلمات ، وما تحمل من مسميات ، تنصهر وتذوب في بناء جديد يخضعها لنظامه ويسوقها لتأدية غرضه إنما يبسط ظواهر تكشف غموض السرائر وما جبلت عليه ، لذا تطلب معرفتها مزيد تدقيق في طرق الرصف اللغوي للتعبير عنها وأساليب طرح ما اختلج فيها ، فإن العبارة قد تحمل على ظاهرها أو باطنها ، لأنها صلة بين اثنين في مشهد معين ، وهي دليل ما خفي لولاها لا يظهر ما يشير إلى الهيأة الحادثة في القلوب والضمائر ، وما تثيره من انفعالات جسدية مصاحبة لها ، وتبعات تجليها على المتلقي لأن التعبير اللغوي بخلاف غيره ، فإنه يختص بما يأتي :

1. مزية الإنسان الأولى ، لأنه سمي بها وفُضّل وشُرّف ورفع بها ، وهي الملكية الخالدة له في دنياه وآخرته ، وهي التي أغاضت إبليس { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى } [طه 120] ، فإن الملك الحقيقي الذي لا يزول ولا يضعف هو التعبير اللغوي بنوعيه المسموع والمقروء فكان خلاص آدم ونجاته { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة 37] ، كما كان نجاة ذريته به كما قال تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه 123 – 126] .
2. ارتباطه بالقلب والوجدان ، فينظم بحسب عملهما ، لأنه الموصل لهما بالعقل وبالآخرين ، فينبعث من القصد والعزم ، وهو ما يحتاجه الآخرون من المنتج ، لأن المعنى هو " القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه ، والكلام لا يترتب في الإخبار والاستخبار وغير ذلك إلا بالقصد " [38] ، كما إنه الغرض المقصود من عمل الجوارح بدليل تقديمه على العمل في قوله تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [فاطر 10] .

لأن " الرافع الكلم والمرفوع العمل ، لأنه لا يقبل إلا من موحد " [39] ، وذلك أن القصد والاعتقاد من أعمال القلوب ، و " نية المؤمن خير من عمله أنه ينوي الإيمان ما بقي ، وينوي العمل لله بطاعته ما بقي ، وإنما يخلده الله في الجنة بهذه النية لا بعمله ألا ترى أنه إذا آمن ونوى الثبات على الإيمان وأداء الطاعات ما بقي .. ولا نية له فيها أنه يعملها لله فهو في النار ؟ فالنية عمل القلب وهي تنفع الناوي وإن لم يعمل الأعمال وأداؤها لا ينفعه دونها " [40] ، بل الخلود لما يكتب من أعمال الفجار والأبرار بدليل قوله تعالى كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين 7 – 21] .

3. إن التعبير تواصل إنساني فطري طبع عليه الإنسان بالغريزة والتكوين العضوي فإن نفسه تحدثه وهو يحاورها ويملي عليها وتملي عليه ، كما جاء في قوله تعالى { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } [يوسف 53] ، فقد " أراد الجنس : أي إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات " [41] ، والأمر في حقيقته تعبير عن إرادتها ، حثّاً ولوماً النفس اللوامة ، وقد بيّن حديثها وما يترتب عليه قوله تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النحل 76] .

أي " ومن هو فهم منطيق ذو كفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل " [42] . والنطق يكون بأعضاء من الجسد الإنساني كالحلقوم والفم والخيشوم واللسان والأسنان والشفتين ويتحكم في ذلك العقل بالاستجابة لما يصل من السمع والبصر والقلب بتنسيق منظم تحتفظ الذاكرة بمخزون هائل من الصور الذهنية ، وهي انعكاس للوجود المدرك والمتخيل ، وهذا المخزون يميل باستمرار للتداعي مع صور وأشكال

---

[37] () الكشّاف : 1 / 203 – 212 .
[38] () الفروق اللغوية : 23 .
[39] () الكشّاف : 3 / 302 .
[40] () لسان العرب : مادة (نوى) .
[41] () الكشّاف : 2 / 327 .
[42] () أنوار التنزيل : 362 .

جديدة بحكم قدرته على التآلف معها في الخلق والتكوين ، فيحصل من مجمل العمليات الإبداع المعبر عن الواقع ، ولكنه ليس نسخاً مطابقاً له في المادة والنوع ، بل هو عالم آخر منظم من رموز دالة على أشكال متصورة يدركها الذهن تجمع بين الوجدان والفكر ، وبين المنتج والعالم وقبل هذا وذاك ، فإن القدرة التعبيرية الإنسانية تكشف عن سر الوجود كله ، فإن الخالق العظيم قد بسط أسماءه وصفاته وشرعه به ، وبيّن حكمته وإرادته في نظمه فجعل خليفته قادراً على صناعة تعبيره ليكون شاهداً عليه وواصفاً له وحاكماً عليه فيحاسبه به ، فقد قرر ذلك بقوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد 8 – 10] . أما من ينظر ولا يعتبر ويسمع بغير تأمل وتذكر فهو الغافل عن دلائل ما نصب له مما يرفعه { إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } [الأعراف 172] ، واستحق بغفلته أن يكون ممن قال الله تعالى فيهم { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف 179] ، فهم كالأنعام " في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر { بَلْ هُمْ أَضَلُّ } من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر { أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الكاملون في الغفلة " [43] ، وذلك لأن " مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها { بَلْ هُمْ أَضَلُّ } ، فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجتهد في جذبها ودفعها غاية جهدها وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار " [44] ، لأن الله تعالى أراد أن يكون الإنسان فاعلاً بالحسنى ومنفعلاً بالأحسن قولاً وعملاً لأنه تعالى { أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون 14] ، فخلق { الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين 4] . فإن التعبير الحسن دليل الطبع الحسن والاستقامة { وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [لقمان 22] ، و{ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران 134] ، وهم الذين يحسنون التعبير ويتبعون أحسن ما فيه و{ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت 33] ، لأن { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [الزمر 23] ، وهم { وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [الزمر 17 – 18] . فقد أراد الله " أن يكونوا مع الإجتناب والإنابة على الصفة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب حراصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً ويدخل تحته المذاهب واختبار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر وأبينها دليلاً وأمارة وأن لا تكون في مذهبك كما قال القائل :

*** ولا تكن مثل عَيْرٍ قيد فانقادا ***

يريد المقلد " [45] .

وهو الذي غلب على أمره فسلم ناصيته بيد غيره فلم ينتفع بما أنعم الله عليه فأورد نفسه الهلكة ، لأنه لم يرجع إلى الكتاب فيتدبر ما فيه ، ويتأمل معانيه وينظر فيما يؤول إليه ويتبصر ، فقد قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} [النساء 82] ، فآثروا التقليد على النظر في نظمه وبلاغته ومعانيه فقال تعالى فيهم { فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء 78] ، أي " يوعظون به وهو القرآن ، فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا حديثاً ما كبهائم لا إفهام لهم " [46] ، لغفلتهم وهم سيضطرون إلى النظر طويلاً في كتاب أعمالهم مع أن التكليف غير خارج عن حد الوسع والطاقة وقد قال تعالى { وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}[المؤمنون 62 – 63]، و " الغمرة : الماء الذي يغمر القامة ، فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم ، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده بل هو مثبت لديه في كتاب يريد اللوح أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرأون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحداً " [47] ، وذلك إذا { أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [الزمر 69] .

---

[43]() الكشّاف : 2 / 132 .
[44]() أنوار التنزيل : 229 .
[45]() الكشّاف : 3 / 393 .
[46]() أنوار التنزيل : 119 .
[47]() الكشّاف : 3 / 34 – 35 .

والتدبر بخلاف القراءة بلا علم بتأويله ، فقد يحفظه كله فلا يسقط منه حرف ولكن يسقطه كله فلا يرى للقرآن عليه من أثر في خلق ولا عمل لذلك قال تعالى { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } [ص 29] ، أي " ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة وليتعظ به ذوو العقول السليمة وليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم بما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع وإرشاد إلى ما لا تستقل به العقل" [48] ، " لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعذنا من القراء المتكبرين " [49] .

4. التعبير اللغوي فردي الإنتاج والتكوين لذلك كان شاقاً لا يتصدى له إلا من صقلت مواهبه وهذبت قريحته بالتثقيف المتواصل فعلم مراده وفهم مقصوده ترتيباً وتنسيقاً لأدواته ، فإن " علاقات العالم الداخلي النفساني بالعالم الخارجي تتجسم في التعابير المختلفة توجد بوجودها وتتعدم بانعدامها ، إنها شرط وعلة لها وبما أن الموضوع والذات ، أي المفعول والفاعل يلتقيان في الشعور الفردي ليتحققا كان لزاماً على الدراسات النفسية أن تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير وأصنافه " [50] .

ترتبط حقيقة التعبير بالمنتج وهو لا يولد في فراغ فلا بد له أن يطبع بطابع ثقافة أهله ومجتمعه وعصره ، ثم إنه يولد مجهزاً بما يلزمه للتعبير عن كل ذلك ، كما أن مفرداته تحمل حقائق تاريخية وفكرية ونفسية واجتماعية وجغرافية لأمته التي يتكلم بلسانها ، ولكنه يخضعها لإرادته ويشكلها برؤياه وإحساسه وما كابده ، فهو ينظم آلاته العامة بحسب قدراته الذاتية وما يحمل من نوازع نفسية وغايات ذهنية واتجاهات فكرية تظهر علاقته بما حوله ، فهو يعبر ، لأنه فكر وفهم فأراد التواصل ليجد ذاته فيأنس بها وذلك بمعيار اجتماعي يحصل عليه بعد أن يخوض في غماره ويجني ثماره ، لأنه في ابتلاء دائم ومكابدة مستمرة بدليل قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ } [البلد 4] ، أي " تعب ومشقّة من كبد الرجل كبدا إذا وجعت كبده ومنه المكابدة ، والإنسان لا يزال في شدائد مبدأها ظلمة الرحم ومضيقه ومنتهاها الموت وما بعده " [51] .

وأما اختباره في حياته فقد قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر 15 – 16] ، لأن " الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة وهو مرصد بالعقوبة للعاصي ، فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها ، فإن قلت : كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؟ قلت : لأن كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى { وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الأنبياء 35] ، فإن قلت : هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال { فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ } ؟ قلت : لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة ، وأما التقدير فليس بإهانة له ، لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ولكن تركاً للكرامة " [52] ، بل لأن فعله أسوأ من قوله لقصور نظره وسوء فكره فإن إكرامه باستحقاق كان قد استوجبه في ظنه على المكرم سبحانه وتعالى ، كقوله { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي } [القصص 78] ، فإذا أخل المنعم بالتوسعة عليه فابتلاه بالفقر والتقتير فقد حرمه الإنهماك في حب الدنيا ، لأنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، كما قال تعالى { بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } [القيامة 5] ، بدليل استبعاده لقيام الساعة وتعنته واستخفافه كما يظهر في قوله { يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [القيامة 6] ، وذلك " ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان { يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ } متى يكون استبعاداً واستهزاءاً " [53] ، لأنه مطبوع على الاستعجال والضعف فقد { خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء 37] ، " فقدم أولاً ذنب الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ، ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال ليس يبدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم ، فإن قلت : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله { خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ } ، وقوله { وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً } [الإسراء 11] ، أليس هذا تكليف ما لا يطاق ؟ قلت : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة " [54] ، ولكنه لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات كما قال تعالى { وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفاً } [النساء 28] ، فجاء التعبير الإلهي هادياً ومبيناً لإرادة

---

[48]() أنوار التنزيل : 602 .
[49]() الكشّاف : 3 / 372 – 373 .
[50]() تأملات في اللغو واللغة : 72 .
[51]() أنوار التنزيل : 799 .
[52]() الكشّاف : 4 / 252 .
[53]() أنوار التنزيل : 772 .
[54]() الكشّاف : 2 / 572 – 573 .

الخالق العظيم فألهم الإنسان القدرة التعبيرية اللغوية ، ليخفف عنه معاناته ، ولينير له الطريق ، ويثبته عليه بذكر مناهج من تقدمه من أهل الرشد ، ليسلك طريقهم ، فقال تعالى { يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ} [النساء 26 – 28] ، فقد كرر إرادة التوبة للتأكيد والمبالغة في الرحمة ، كذلك " شرّع لكم الشرعة الحنيفة السمحة السهلة ، ورخّص لكم في المضايق " (55) ، فكان الغرض من تعليم الإنسان التعبير اللغوي أن يحيط علماً بالكتب والوحي رحمة به فقدم تعليم الكتاب على خلقه إشعاراً بأهمية البيان فقال تعالى { الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن 1 – 4] . فإن " تقديم تعليم القرآن إشارة إلى كونه أتم نعمةً وأعظم إنعاماً ثمّ بيّن كيفية تعليم القرآن فقال { خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } ، وهو كقول القائل علمت فلاناً الأدب حملته عليه وأنفقت عليه مالي فقوله حملته وأنفقت بيان لما تقدم ، وإنما قدم ذلك لأنه الإنعام العظيم " (56) . وفي تقديم تعليم القرآن إشارة إلى أنه أعلى الكتب السماوية ومعيارها ومصداقها في حين قدم خلق الإنسان على التعليم عموماً في قوله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } ، ثم قال { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}[العلق 1 – 4]، بدليل قوله بعد ذلك {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق 5] وفيه إشعار بنعمة تعليمه التعبير المبين بتعليم آدم الأسماء وهي رموز الأشياء للفصل فيما بينها ، كما أنها أدوات التعبير المكتوب بدليل قوله تعالى { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم 1] ، فقد " أقسم بالقلم تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف { وَمَا يَسْطُرُونَ } وما يكتب من كتب " (57) .

فإن آلات البيان الإنساني نطقاً أو كتابةً تتعلق به ذاتاً ومكاناً وزماناً وتاريخاً وحاضراً ومستقبلاً بخلاف آلات غيره من الكائنات الأخرى ، وتعليم البيان إشارة إلى أن الإنسان يستطيع معرفة ذاته وما حوله ويفهم ارتباطاته بالعالم وبماضيه ويصنع مستقبله ، لأنه لا معرفة تمر دون التعبير عنها ، فإن التعبير أساس كل علم وأصل كل معرفة يدل على ذلك قوله تعالى { عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق 4 – 5] ، أي " الخط بالقلم ، وقد قرئ به ليقيد به العلوم ويعلم به البعيد { عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } بخلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً . وقد عدد سبحانه مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبه على ما يدل سمعاً " (58) ، فدل " على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به " (59) ، فإن التعبير اللغوي بنوعيه المنطوق والمخطوط تدبير رباني محكم أوصل الإنسان بربه ونفسه ومجتمعه وبماضيه وعصره وبيئته فجعله حياً بعد فنائه ومبدعاً خلاقاً ، كما كشف به عن فكره وطبعه وهواه وعلمه وجهله وفطنته وغفلته لذلك قال الله تعالى { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } [النجم 3 – 4] ، حتى صار التعبير اللغوي المنطوق لديه معياراً لتحقيق كل ما وعد به في الغيب وثبوت ما وراء الطبيعة مما يدركها ولا يراها ، بدليل قوله تعالى { فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } [الذاريات 23] ، أي " مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك " (60) ، و " هذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع ومثل ما أنك ههنا " (61) . فالنطق دليل الوجود الذاتي تتجلى فيه مواصفات أحواله وتعرف به حقيقته وتتجسد فيه روحه فما الإنسان إلا تعبير رابط لكيانه بروحه ، لأنه ماهيته وهويته ومفتاح لما استغلق فيه وسكن وجدانه ومظهر كل أمر وجلاء كل خفي ومستودع كل معجزة ودليل كل فضيلة فقد قال تعالى { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ

---

(55) أنوار التنزيل : 109 .
(56) التفسير الكبير : 29 – 86 .
(57) الكشّاف : 4 / 141 .
(58) أنوار التنزيل : 8.4 .
(59) الكشّاف : 4 / 270 – 271 .
(60) أنوار التنزيل : 691 .
(61) الكشّاف : 4 / 17 .

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا} [النمل 16 – 19] ، فكان تعبيره " تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها ودعاءاً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه والنطق والمنطق في التعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً .. { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا } تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها أو سروراً مما خصه الله به من إدراك همسها وفهم غرضها " [62] . فإذا كان التعبير لُحمة الإنسان بنفسه وبمحيطه إثباتاً لوجوده ومقياساً لمنزلته ومعياراً لفهمه وترجماناً لعقله وعنواناً لحسه ووجدانه في الدنيا فهو في الآخرة سيكون لحمة لأعضائه به في مشهد درامي تستعرض فيه دنياه كلها لإظهار ما استحضر من أقواله وأعماله مرئية ومسموعة يتجدد بموجبها مصيره ، فيساق إليه حيث يلقى الجزاء الأوفى ، إذ يعطل تعبير الفم ليبدأ تعبير الأعضاء ، وإذا كان التعبير الأول عجيباً فإن الثاني أعجب لشدة خطره فقال تعالى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } [النور 24 – 25] ، فإن الأيدي والأرجل تشارك ألسنتهم في الشهادة للتعبير عن عملهم لأن وزرهم الأكبر كان بألسنتهم ولغير هؤلاء ممن كسبوا السيئات تحرم الألسنة من الشهادة ، فقال تعالى { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يس 65] ، لأنهم يجحدون ويخاصمون فتشهد عليهم أنفسهم بأن يختم الله على أفواههم فتتكلم أيديهم وأرجلهم معبّرة عن أعمالهم ، إذ " يقول العبد يوم القيامة : إني لا أجيز عليَّ شاهداً إلاّ من نفسي ، فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكُنَّ وسحقاً فعنكُنَّ كنت أناضل " [63] . أما المجاهر بعداء الله تعالى فيزاد عليه بتعبير آخر أشد وهو جلده بكامله للدلالة على كمال القدرة الإلهية في النفاذ إلى كل ما كان مستورا فقال تعالى { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [فصلت 19 – 21] ، وذلك " بأن ينطقها الله أو يظهر عليها آثار تدل على ما اقترف بها فتنطق بلسان الحال { وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا } سؤال توبيخ أو تعجب ولعل المراد به نفس التعجب { قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } أي ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيْ وليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل حي " [64] ، فإن التعبير في الدارين هو العجب الذي بهر الله تعالى ملائكته بخلافة آدم فاعترفوا بعجزهم بقولهم { سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا } [البقرة 32] ، فصدروا كلامهم بالمصدر (سبحان) مضافاً للدلالة على اعتذارهم عن الاستفسار والجهل بحقيقة تعليم آدم التعبير اللغوي

5. التعبير اللغوي غير محدود باعتبار ما يلزم مدلوله من تداعيات تفتح آفاقاً أوسع بكثير من لبناته المنظوم بها وإن كانت محدودة بقواعدها التنظيمية ، إذ لا يفصل معنى بعينه عن غيره ، فإنه يثير جملة من المعاني ترافق تنسيقه وترتيبه فلا حد للجهات التي تصلح لها مفرداته لتعدد الهيآت التي تظهر فيها بنسبها التامة والناقصة وبمواضعها ورتبها وذكرها وحذفها وإظهارها وإضمارها وتنكيرها وتعريفها ونحو ذلك ، لأن الغرض من التعبير العلم والفهم ، والعلم لا نهاية لقدره وعدده ومدته وكذلك الفهم والإفهام لصدوره عن طبائع مختلفة منها ما يكون مشتركاً بين بني الإنسان نفسياً وشعورياً ومنها ما ليس كذلك ، فلكل أمةٍ طرائقها في الإعلام عن مشاعرها وإدراكها ، كما أن لكل جماعة بيئة يتأثرون بها على نحو معين بدرجات متفاوتة ويعبّرون عن تأثيرهم وتأثرهم بأساليب وطرائق خاصة بهم ، وكذلك لكل واحد منهم مستوى معين من الوعي بكيفية رصف مفرداته وحسن اختيارها بما يتناسب ومراده منها بحسب رعايته للتركيب المنظم لأفكاره فإن للتعبير اللغوي جانباً فنياً لا يحسنه إلا من برع في التأليف وأخذ بسبيل الذوق ودقة مسالكه ليكون قادراً على تغذية الأفكار وتنشيط المشاعر وتحريك المواهب ، لأن المبدع فيه قد وفى بما يختص بمشاعره ووجدانه وما اتقد فيه قلبه وتحصل في لبه واختمر في ذهنه ولم يختر عبارات غيره ، فلم يُضيّع ما توخاه من إفهام غيره مشاعره فسلك به طريقاً فنياً تكامل فيه ثراه اللغوي في التصوير اللفظي ، فناسب المراد منه إيحاءاً وإشعاراً بجملة من الغايات تفوق عدد العبارات الظاهرة بما يحضّ على إبداعات أخرى في سلسلة متواصلة الثمار لزيادة الإفهام والتذكير بفنون التعبير بالوسائل المشتركة في الصناعة اللغوية التي اختصت بمزايا تفوق غيرها من وسائل التعبير الإنساني بدليل قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

---

[62]() أنوار التنزيل : 501 .
[63]() الكشّاف : 3 / 328 .
[64]() أنوار التنزيل : 632 – 633 .

وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم 24 – 27] ، و " إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة ، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة ، إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية . كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة في القلب وقول باللسان وعمل بالأبدان " [65] ، وليس كذلك ، فإن الله تعالى صور المعنى وقربه من الملموس بالحسن باعتماد المثل فشبه التعبير اللغوي الداعي إلى الصلاح والمعبّر عن الحق في كثرة منافعه للناس بالشجرة الطيبة لكثرة منافعها ، لأن { كَلِمَةً } بدل من قوله { مَثَلاً } ، و{ كَشَجَرةٍ } صفتها ، وشبّه مضار الكلمة الخبيثة بمضار الشجرة الخبيثة ، وهي الشريرة ، لأن " خبث الشيء يخبث خباثةً وخبثاً فهو خبيث وبه خبث وخباثة وأخبث فهو مخبث إذا صار ذا خبث وشر ، والمخبث : الذي يعلم الناس الخبث " [66] . وقد قال تعالى { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ } [النور 26] ، فإن المعنى " الكلمات الخبيثات للخبيثين من الرجال ، والرجال الخبيثون للكلمات الخبيثات ، أي لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء " [67] ، فإن خبيث الطبع مريض القلب لا يصدر منه إلا الضار من التعبيرات ، بدليل قوله تعالى { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ } [النور 15] ، وقوله { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ } [النور 24] ، وذلك بخلاف النافع من التعبير ، فإنه مُتمكّن في قلوب المتلقين ، لأنهم يحيون به ويجنون ثماره الطيبة في الدارين ، لذلك قال تعالى { يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } [إبراهيم 27] ، وذم المقلدين بقوله { وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ } [إبراهيم 27] ، وهم " الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد فلا يهتدون إلى الحق ولا يثبتون في مواقف الفتن " [68] .

وقد وجّه الله تعالى أنظارنا إلى عواقب التعبير الخبيث بقوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [إبراهيم 28 – 29] ، لأن " شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدّلوه تبديلاً ، ونحوه { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } [الواقعة 82] ، أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه " [69] ، فإن التغيير بيد الذين يحسنون صناعة التعبير فهم القادرون على تغيير معتقدات ومشاعر الذين يشايعوهم في الكذب والكفر من المغفلين بحملهم على ما يريدون بتعبيرات تروض عقولهم وتستميل قلوبهم وهذا الحال لا يقتصر على وقت دون آخر بل هم مستمر ببقاء التعبير لحفظه بالخط فالصالح منه يثمر صالحاً والخبيث يؤدي بصاحبه ومن يتابعه إلى الهلاك ، وقد عرّف " السفسطاني (غور غباس) الكلام بأنه قوة بفضلها تقع التحولات ، فالذي يستطيع أن يقنع بكلام مبين لا محالة واصل إلى رتبة الكمال ، والقوة الإقناعية فطرية ، عند الخطيب الموهوب بها يستطيع أن يخرج إخراجاً قويماً ما في الكلمات من سحر ، يرى الفيلسوف اليوناني الحقيقة مرادفة لقوة التعبير ، كما أن الحكمة في البيان . وعليه فإنسانيتنا تكتمل بفضل قدرتنا على التعبير ما دامت قوة الإفصاح (البيان) تكسب المرء قدرة يتدرج بها نحو الكمال " [70] .إن القدرة التعبيرية دليل الإنسانية لا تكاملها ، لأن التكامل إدعاء الكمال والتظاهر تكلف حقيقة الكمال وهو لله تعالى وحده ، كما أن الحقيقة ليست مرادفة لقوة التعبير ، لأن الحقيقة (فعيلة) بمعنى مفعولة ، والتاء فيها ليست للمبالغة وإنما الصيغة بتمامها تدل على اسم ما يثبت ويجب والاسم غير المسمى ، " والحقيقة ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه ، وحقيقة الرجل : ما يلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفاع عنه من أهل بيته والحقيقة ما يحق عليه أن يحميه وجمعها الحقائق والحقيقة في اللغة : ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه " [71] ، فإن حقيقة التعبير تكمن في ما يثبته من أمر مُتحقق فعلاً ، وهذا الأمر ليس هو عين التعبير ، بل هو خلق جديد له برؤية تحقق هويته وتحدده بحسب تعيين المُعبّر عنه لا بحسب واقعه ، لأن التعبير ليس نسخاً للواقع ، بل هو تصوير بتشكيل ذهني مُتخيّل لرموز دالة على واقع ما اعتمل في نفس المعبّر ووجدانه ، وهو توليد لروابط تجمع المنتج بوجدانه وبمن حوله وما يحيط به ، لإتمام إنسانيته وليس تكاملها ، لأن الإنسانية تظهر في مقدرتها على تسمية الأشياء وتجسيمها في الذهن وتلوينها بالإحساس وصياغتها في الوجدان وبخلاف ذلك تكون الوحشة والغربة والمرض النفسي ، لأن التعبير وسيلة لاطمئنان النفس واستقرارها ، وهي تنشد الكمال في موافقة الفطرة السليمة التي فطرها الله تعالى عليها ،

---

[65]() التفسير الكبير : 19 – 122 .
[66]() لسان العرب : مادة (خبث) .
[67]() معاني القرآن وإعرابه : 4 / 37 .
[68]() أنوار التنزيل : 340 .
[69]() الكشّاف : 2 / 377 .
[70]() تأملات في اللغو واللغة : 78 – 79 .
[71]() لسان العرب : مادة (حقق) .

والإنسان لا يملك لنفسه شيئاً ينفعها أو يضرّها لجهله بالغيب ، فهو يسعى لنفعها أو ضررها ولو كان كاملاً لما احتاج إلى بث مكابدته وإلى مناجاة ربه لافتقاره إلى رحمته فقد قال تعالى { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } [الأعراف 188] ، وقال { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [الأعراف 205 – 206] . فالتعبير صلة وقربى وكرامة وفطنة ونباهة وسعادة ونور ينبغي للعاقل أن يذكر ملهمه وموجد آلاته ولا فضيلة تعلو مقامه في الإنسان السوي ، لأنه يقرب من مالكه وسيده فينال منه ما يريد ويتمنى . قال الزجّاج " فإن قال قائل : الله جل ثناؤه في كل مكان ، قال الله تعالى {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} [الأنعام 3]، فمن أين قيل للملائكة { عِندَ رَبِّكَ } فتأويله إنه من قرب من رحمة الله ومن تفضله وإحسانه " [72] ، ذلك لمن أسلم وجهه لله تعالى فعبر عن طاعته وخضوعه وسأله الهداية . أما من اتبع هواه فهو الغافل الذي ترك التمسك بالعروة الوثقى فآثر التقليد على التدبر والنظر في العاقبة ، فكان من الذين قال الله تعالى فيهم { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف 179] ، فقد بلغوا الكمال في الغفلة بدليل ضمير الفصل و ((أل)) وبيان كمال غفلتهم في قوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [النحل 107 – 108] ، فهم " الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم ، لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة
ومنتهاها " [73] ، فاستحقوا بها خذلان الله تعالى لهم وإبعادهم عن رحمته ، لأنهم سخروا أعضائهم للتضليل والكذب على الله تعالى { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } [الزمر 32] ، لأنهم جعلوا تعبيرهم تحقيقاً لظن إبليس فيهم ، كما قال تعالى { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } [سبأ 20] ، و " يقرأ { صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } برفع إبليس ونصب الظن ، وصدقه في ظنه أنه ظن بهم إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك فقال { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص 82 – 83] ، فمن قال { صَدَّقَ } نصب الظن ، لأنه مفعول به ، ومن خفف فقال (صدق) نصب الظن مصدراً على معنى صدق عليهم إبليس ظناً ظنه ، وصدق في ظنه ، وفيها وجهان آخران ، أحدهما ولقد صدَق عليهم إبليس ظنه ، ظنه بدل من إبليس ، كما قال تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ } [البقرة 217] ، ويجوز ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه ، على معنى صدق ظن إبليس باتباعهم إياه وقد قريْ بهما " [74] ، فهم مالوا عن الحق فاتبعوا الباطل وروجوا له بدافع من الوسوسة فزينت لهم ما يقولون وما يكتبون بحبكة شيطانية يخادعون بها أنفسهم ، فقد قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً } [البقرة 8 – 10] . وطائفة أخرى عرفت الحق فعدلت عن الباطل والتزمت بهدي ربها ، لأنها أدركت عاقبته فعبّرت عمّا يرسخها فيه لتنال أجر من يستوعبه ويعيه ويجعله طريق حياة مطمئنة لسلامته من المكاره التي لا توافق الفطرة السليمة ، فقد قال تعالى { وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف 181] . و " ذكر ذلك بعدما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه أيضاً خلق للجنة أمة هادين بالحق عادلين بالأمر ، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة " [75] . فقد عبّر البيان عن نفوس جبلت على الخير وأخرى ضلّت طريقها بفعل غفلتها وأعرب عن مآلها ، وللناظر في ذلك الاعتبار بالاستدلال على الحقيقة وتفسيرها بأقرب ما يعلمه منها فإن صفحة الوجود كله مبسوطة أمامه بالتعبير لأنه الكلام المبيّن كل ما دقّ من الأشياء ولطف من جواهرها والمجلّي خفاءها والمذّكر بمبدئها والمعرب عن عاقبتها وما يكون مصيرها ولا تعبر معلومة ما إلا عليه ، وهو يخبر بما يؤول إليه أمرها فإن التعبير مجسد لكل شيء بصورة فريدة تجمع الماديات والمعنويات برموز تخلق عالماً مدركاً بالحواس في نظام دال على فكر منظم بتناسق عجيب بين ثلاثية تمثل الوجود الإنساني في الدارين ، فإن التعبير يتحدى الفناء الجسدي وهو صلته بالروح ومثبت للنفس الخيرة أو الشريرة ودليل على ما يختلج فيها ، وهي التي تتحسر على تفريطها والجسد شاهد عليها بعد أن تُعاد الروح إليها ، كما قال تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ *أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ

---

[72]() معاني القرآن وإعرابه : 2 / 398 .
[73]() الكشّاف : 2 / 430 .
[74]() معاني القرآن وإعرابه : 4 / 251 – 252 .
[75]() أنوار التنزيل : 230 .

السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الزمر 55 – 58] ، و " المعنى اتبعوا أحسن ما أنزل خوفاً أن تصيروا إلى حال يقال فيها هذا القول وهي حال الندامة ، وكراهة أن تقول هذا القول الذي يؤدي إلى مثل هذه الحال ، لأن الله قد بيّن طرق الهدى والحي في نيّته بمنزلة من قد بعث ، لأن الله خلقه من نطفة وبلغه إلى أن ميز فالحجة عليه " [76] ، لأن نفسه تعقله وتعيه وتدركه { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً } [آل عمران 30] ، أي " يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً [77] ، فهي التي تميز لذلك تقبض فيقطع صلتها بالأبدان في النوم والموت ، كما قال تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[الزمر 42] ، أي " ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، فالميتة المتوفاة وفاة الموت التي قد فارقتها النفس التي يكون بها الحياة والحركة والنفس التي تميز بها ، والتي تتوفى في النوم نفس التمييز لا نفس الحياة ، لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النَّفسُ والنائم يتنفس فهذا الفرق بين توفي نفس النائم في النوم ونفس الحي " [78] . وقيل " في ابن آدم نفس وروح ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النَّفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه " [79] ، أي " يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلّقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهراً وباطناً وذلك عند الموت ، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم ، فيمسك التي قضى عليها الموت ولا يردّها إلى البدن ، ويرسل الأخرى أي النائمة إلى بدنها عند اليقظة " [80] ، فلا وعي فكري أو وجدان دون نفس واعية ، ولا نفس دون وعي ولا وعي دون تفكير ولا تفكير دون تعبير ولا تعبير بدون لغة ولا لغة بدون رموز وأسماء ومقاييس وهي التي تضبط تصرف الأنفس بحركاتها الدنيوية كما أنها تشهد عليها عند بعثها فتجد كل ما قدمته في يقظتها حاضراً ، ولا نصل إلى حقيقة النفس الإنسانية إلا عندما نصل إلى التعبير بوضوح ودقّة ، لأنه يتمركز في نفوسنا فهو محور حياتنا الفكرية والوجدانية والاجتماعية ، وعليه يتوقف تعزيز كرامتنا وبه يتقرر مصيرنا يوم نقول { هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ } [الحاقة 19] . وفيه نجد أنفسنا يوم تشرق الأرض بنور ربها ويوضع كتابنا وفيه خط كل لفظ نطق به لساننا وكل كلمة عبرنا بها كما قال تعالى { مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق 18] . وفي ذلك دليل على أن الإنسان هو الذي يحقق ذاته ، حين يعقد مفردات تعبيره بإحداث علاقات فيما بينها بحسب مراده ، كما أنه هو الذي يختار ما يناسبه من لسان قومه ، فيوجهه بنسب مختلفة وبأساليب متنوعة، لذلك كان هو المسؤول عن تعبيره ، وإن كان مطبوعاً عليه بالغريزة ، فيدفع إليه دفعاً لدواعي شتى فلا يجد سوى التعبير اللغوي ملاذاً يركن إليه ، وهو بذلك يحدد مكانه في الدارين ويكشف عن عاقبته ، وكل أمر خفي فيه ، فيعين به هويته إذ يخرجه تعبيره من ظلام الغموض إلى وضوح الوعي ، ففي ظل مقاطع تعبيره تعرف بواطن نفسه وتتجلى كوامنه في نسج شكل تعبيره وفي مبدئه ومنتهاه ، وفي فواصله ووصله وطريقته ومبناه وإيجازه وإطنابه وفي مناسبته للمقام والحال وفي وضوح مسالكه ولطف دقائقه ، لذلك فإن التنظير اللغوي قديماً وحديثاً لم يعتمد في منهاجه النزعة التعبيرية الفردية ، بل اتجه إلى تجريد أصول مطلقة عامة بغية الوصول إلى قدر مشترك يتمثل في وعي ضمني لقواعد اللغة الأم عند وصفها وتفسيرها مع محاولة تشكيل وعي صريح للتقعيد اللغوي العام وهي لا تقدم أدلة حاسمة لكشف الأبعاد الشخصية بل تنطلق من تصور منطقي غير مقطوع بنتائجه في محاولة للكشف عن القدر المشترك الذي يجمع بين مختلف اللغات الإنسانية في العالم بحجة " أن ثلاثة أبعاد من أبعاد النظر في اللغة هي من مستلزمات أية نظرية مشتركة أو ائتلافية في التحليل اللغوي أولها : وصف الظاهر اللغوي باستخراج قواعده الذاتية المتواترة ، والثاني : سبر الباطن إلى الظاهر لكشف اللبس (على مستوى العلاقة بينهما) ورد الفروع إلى الأصول ، والثالث : تجاوز النظر اللغوي الخالص إلى اعتبار السياق الخارجي للظاهرة اللغوية في رصد القواعد التي تنضبط بها الظاهرة النحوية " [81] .إن التحليل اللغوي لا يخرج من تلك الأبعاد إلا بتطبيق مناهج التقطيع اللغوي ، وهي لا توصل إلى كشف الأبعاد الذاتية للمعبّر بل تجعله آلة مذياع لتمرير ما يريده المنظّر ، فلا يعطي للإنسان الثقة بإمكاناته الذاتية التي يحقق بها مصيره كاملاً بخصوصية تتمرّد على كل تقعيد وتخرق كل حد ، لأن البعد الأساسي في كل تعبير لغوي ما تظهره النفس

---

[76]() معاني القرآن وإعرابه : 4 / 359 .
[77]() الكشّاف : 1 / 423 .
[78]() معاني القرؤآن وإعرابه : 4 / 356 .
[79]() الكشّاف : 3 / 400 .
[80]() أنوار التنزيل : 2 / 612 .
[81]() نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث : 110 .

الإنسانية من تميّز في صناعته ونسجه وفحواه ، لأنه صورة من وجوده ، وهو لا يتطابق مع غيره إلا تقليداً ومحاكاة ، ومع ذلك فإن تعبيره يأخذ منحى أخر بالنغمة والانفعال والوقف أو السكت والابتداء والإدغام والإظهار والنبر ونحو ذلك مما يظهر المزية الخاصة به دون غيره كما أن سياق الحال يختلف من شخص لآخر لاختلاف العوامل والظواهر الاجتماعية وتباين المتلقين في الاستجابة والتأثر بحسب المعبّر ومركزه الاجتماعي والثقافي ، وطبيعة الموقف الذي يعبّر عنه .

إن خلق الاتصال النفسي والاجتماعي والثقافي والتاريخي والفكري والشعوري لا يكون إلا بالرموز المسموعة والمرئية ، لأنها مشحونة بمدلولات معروفة للمجتمعات الإنسانية ، وكل مجتمع ارتضى لنفسه مجموعة من الرموز الخاصة به بوصفها علامات دالة على هويته ، وفي ذلك دليل على عظمة الخالق العظيم ، وذلك " يرجع إلى اختلاف نوع التكييف العضلي الذي يصحبه ، وهذا التكييف أمر فردي في طابعه ، حتى ليختلف الإخوان في طريقة النطق ويختلف الشخص مع نفسه من نطق إلى نطق ، بحسب ظروفه العضلية والنفسية " [82] .

وكذلك العلاقات التي تربط الرموز بعضها ببعض بحسب ترتيبها فإن اختيارها مرتبط بحاجات الفرد التعبيرية وهو مدفوع إليها غريزياً فينظمها بما كسب من أصول مجتمعه التي مال بها عن غيره لإيجاد التواصل لتحقيقها فيصوغ الفرد تعبيره بحسب أنظمة مجتمعه الصوتية والصرفية والنحوية من مفردات لسانهم الذي يتواصلون به في حياتهم بما يتناسب مع سياق حاله بحدود المقبول اجتماعياً ، لأن المجتمع لا يسمح بالتعبير عن جميع الرغبات الفردية لهذا قال تعالى ترغيباً في الجنة { لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً } [الغاشية 11] ، أي " لغواً أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو ، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم " [83] .

وفي ذلك دليل على أن النفس الإنسانية إنما تعبّر عن مكنوناتها بدءاً وانتهاءً ، ولما كانت نفوس أهل الجنة مطمئنة بعطاء ربها وساكنة في رحمته ، فلم تطق من يعكر صفاءها ، وذلك بخلاف نفوس أهل النار التي تصطلي بنار الحسرة والندامة فيلعن بسياط ما فرط في جنب الله تعالى بإتّباع هواه وظنه البائس الذي دفعه إلى الغرور فعبّر عن فجوره خصيماً بالباطل فسعى لاهثاً لتصديق ظن إبليس فيه ، فالجحيم في التعبير المزين للنفس سبل الشر التي تحقق الغفلة الكاملة عن الصراط السوي والنعيم الدائم في التعبير الإلهي الذي { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت 42] ، فهو التعبير الذي " لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات أو مما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية { تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ } وأي حكيم حميد يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمة " [84] ، فأظهر التعبير القرآني كل ما خفي ، لأنه أحاط بكل ما يصلح النفس الإنسانية مبدءاً وعاقبة ، { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} [السجدة 17 – 22] ، لأن المعرض عنه أظلم من كل ظالم ، فإن " الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز ، فإن قلت : هلا قيل إنا منه منتقمون ؟ قلت لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة " [85] ، لأن إظهار الجرم في الإعراض أشد وعيداً بدليل الجمع السالم الذي يغلب عليه معنى الفعلية ، فإن الذين أجرموا مصرون على كسب المزيد من الأتباع والمقلدين من المغفلين ، لأنهم يريدون أن يعرض غيرهم أيضاً لأن فيه كشفاً واضحاً لأحوالهم فكانوا يقولون { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت 26 – 28] ، لأنهم يعرفون أنها حق فاستحبوا العمى لهم ولغيرهم على الهدى باختيار الضلالة عليه بدليل ما عبروا عنه بإرادتهم وما طبعوا عليه من الشر ، فلا ينسب تعبيرهم عن ذلك إلا لما جبلوا عليه من اللغو في الحق ، " وهناك حقيقة كثيراً ما دعت إلى أن تمنع الاعتراف باللغة باعتبارها نظاماً عرفياً من العلامات ، وغررت بالعقل العام فجعلته ينسب إليها أسساً غرزية ليست لها تلك هي الملاحظة الشهيرة التي تقول إنه تحت ضغط العاطفة كالألم والفرح مثلاً ننطق بحالة غير إرادية ببعض الأصوات

---

[82]() مناهج البحث في اللغة : 74 .
[83]() الكشّاف : 4 / 247 .
[84]() أنوار التنزيل : 636 .
[85]() الكشّاف : 3 / 246 .

التي يأخذها السامع دلالة على العاطفة نفسها ولكن هناك بوناً شاسعاً بين هذا التعبير غير الإرادي عن الشعور وبين النوع العادي للتفاهم ، وهو الكلام فالنوع الأول غرزي غير رمزي ، لأنه لا يدل على نوع العاطفة ولكنه فيضان آلي لطاقة العاطفة ، وهو جزء من العاطفة نفسها ، ثم هو لا ينقل فكرة على أي حال ، فهو كالنباح والصهيل وما إلى ذلك أما اللغة فهي طريقة إنسانية غير غرزية لنقل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نظام من الرموز التي تستعمل بحسب الإرادة . هذه الرموز سمعية مبدئياً ، وهي تنتج عما يسمى عادة أعضاء النطق . وربما جر الكلام عن أعضاء النطق إلى الظن بأن الكلام
غرزي ، ولكن هذه الأعضاء في حقيقتها ليست وظيفتها النطق وإنما تقوم بوظائف حيوية تساعد على جعل استمرار الحياة أمراً ممكناً " (86) .

إن نقل الأفكار والعواطف والرغبات يكون بالتعبير عنها بما خصصته اللغة من رموز صوتية يستعملها الفرد عند الحاجة ولكن بلا تحديد لفكر أو عاطفة أو رغبة ، فإذا نظمت أفادت جهة بعينها ، والنظم لا يكون إلا في التعبيرات الفردية وليس باللغة ، لأنها عامة ، أما التعبير غير الإرادي عن الشعور فهو لا يختص بالإنسان ، إذ يظهر الانفعال السريع لأي مؤثر وهو ما تتجلى فيه كلمة لغة كلغة العيون والطيور والأنعام والحشرات لأنها تميل عن سكونها بالإيماء أو التصويت بإشارات معينة للدلالة على إرادتها والفارق هو إنشاء العلاقات يكون أظهر وأتم بالرموز المصطنعة لتدخل العقل في نظمها وتناسقها فتنسجم مع إرادته بعد أن تنصهر عناصرها في وحدة متكاملة بالتعبير ، فإن التقسيم الشائع لعناصر اللغة لا يوجد منفصلاً إلا في الصناعة اللغوية ، فمن " المسلّم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتي ، لأنه لا يستطيع ملاحظتها إلا في خصائصها الفردية ... فمن الحق الذي لا ريب فيه أن كل فرد يدخل في اللغة جزءاً من التجديد خاصاً به ، فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد ولكن ليس من الباطل أيضاً أن يقال بأنه لا توجد إلا لغة إنسانية ، لغة واحدة في أساسها في جميع الأقطار والأصقاع ، وهذه هي الفكرة التي تعرب عنها محاولات علم اللغة العام " (87) .إن التجديد يحدث بالاستعمال اللغوي ، وذلك في إحداث علاقات جديدة برموز متداولة عامة ، لأن التعبير فردي يميل به الفرد عمن سواه في مجتمعه فجعل التعبير مرادفاً للغة ، مع أن وظيفة اللغة التعبير ، والإنسانية عموماً مالت بأصواتها عن غيرها فشحنتها بمدلولات تعارفت عليها ، و " لعل عدد الأصوات المستخدمة في جميع اللغات الإنسانية في كوكبنا هذا لم تستنفد كل الإمكانيات الصوتية في الجهاز النطقي الإنساني ولكن هذه الجمهرة الضخمة من الإمكانيات النطقية لا تستخدم كلها في لغة واحدة ، وإنما تختار كل لغة منها طائفة قليلة متباينة يختلف بعضها عن بعض ، إما من ناحية مكان التضييق أو الإقفال الذي هو المخرج وإما من ناحية الأثر الصوتي المسموع جهراً كان أو همساً وإما من ناحية الطريقة التي يخرج بها الهواء عبر المخرج سواء كانت هذه الطريقة انفجاراً أو احتكاكاً أو خروجاً حراً ، وإما من ناحيتين أو أكثر من هذه النواحي " (88) .وكذلك الفرد يختار من مفردات لغته طائفة معينة ليظهرها في شكل جديد خاص به للتعبير عن المراد ، فإن الفرق بين اللغة والتعبير " أن اللغة هي مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والسيكولوجية التي في حوزة الإنسان لتمكنه من الكلام أما اللغات (الألسن) Langues فهي استعمال هذه الإجراءات بصورة عملية " (89) . فإن اللغة أعم من اللسان ، لأنها تضم الإنسانية كلها ، لأنها مزيتها الأولى ، أما اللسان فمختص بالمحادثة في التعبير عن المكنونات بدليل قوله تعالى { لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ }[النحل 103] ، { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [إبراهيم 4] . ولما كان لسان موسى لا يطاوعه على المحاجة قال { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ } [القصص 34] ، وذلك " بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة " (90) ، فليس " الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل الكفار كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة ، فلذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان ألا ترى إلى قوله { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ } [القصص 34] ، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه كذلك لا لقوله صدقت أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه " (91) ، فإن التصديق والتكذيب لا يحصلان باللغة ذاتها بل يتحققان بجودة أو رداءة استعمالها ، لأن أداة التواصل الحقيقية هي العبارات المسموعة أو المرئية واللغة دليل الميل

---

(86) مناهج البحث في اللغة : 62 – 63 .
(87) اللغة : 295 – 296 .
(88) مناهج البحث في اللغة : 73 – 74 .
(89) اللغة : 297 .
(90) أنوار التنزيل : 515 .
(91) الكشّاف : 3 / 176 .

لها بالنظم وعملية نظمها فردية في حين أن اللغة جماعية ، لذلك فإن الحقائق التاريخية والثقافية وغيرها والسلوك الفردي والجماعي ونحوهما كل ذلك يتجسّد ويتحقق فعلاً بالتعبير وليس باللغة ، والبحث عن تلك الحقائق لا يتم باللغة بوصفها مجموعة أنظمة صوتية وصرفية ونحوية ، " فتقسيم اللغة إلى عناصر ثلاثة هي الأصوات والصيغ النحوية والكلمات ما هو إلا تقسيم اصطناعي محض ، لأن هذه العناصر ترتبط بعضها ببعض ولا توجد منفصلة إطلاقاً مهما بدا من اختلافها ، بل تنصهر كلها في تلك الوحدة التي هي اللغة نفسها " [92] ، وليس كذلك بل تنصهر بفعل الإرادة الفردية باستعمال المفردات والعناصر المذكورة لتكون قنطرة لعبور المراد من نظمها بشكل مرتب بعلاقات دالة عليه ، وهي صور ذهنية واللغة مجموعة رموز مادية محسوسة قابلة للتنسيق فيما بين عناصرها بفعل الإرادة الفردية بدليل قيام الدراسات اللغوية على الأفراد بوصفهم مساعدين فيها ، لذلك " ينظر الباحث إلى اللغة باعتبارها كبرى الحقائق الثقافية ، بل باعتبارها أهم مجرى للسلوك الإنساني ، وبوصفها وعاءاً للتجارب في كل مجتمع من المجتمعات وعلى الرغم من كون اللغة حقيقة اجتماعية ، فإن الباحث يأخذها عن الفرد
المتكلم ، الذي يسمى حينئذ مساعد البحث ذلك بأن هذا الشخص المتكلم يمثل نموذجاً من نماذج هذه المنظمة ذات الأجهزة ، أو بعبارة أخرى يعتبر ممثلاً للهجة التي يتكلمها من لهجات هذه اللغة ، بل إن طريقته الخاصة في الكلام تعتبر بمفردها إحدى لهجات هذه اللغة المدروسة " [93] ، فإن اللغة ثمرة جهود فردية متراكمة بدليل قدمها في حين أن التعبير بها متجدد ومتغيّر بفعل تفاعل الإنسان مع الطبيعة وتعاقب الأحداث وتنامي الخبرات بالتعليم اللغوي لخلق المبدعين بالتثقيف والتأمل بدليل قوله تعالى { وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ } [الذاريات 7 – 11] ، وقوله تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء 82] ، لأن " تدبر الأمر تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه ثم استعمل في كل تأمل فمعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصر ما فيه " [94] .والتأمّل حديث نفسي ، والنفوس مُتباينة فيما جبلت عليه من طباع شتّى ، لذلك اختلفت في مقاصدها وأغراضها ، فعرضت أشكالاً دالّة على اختلافها في أقوالها . فانصهار عناصر اللغة لا يعود إلى اللغة نفسها بل إلى استعمالها تعبيراً عن المُراد ، لأن اللغة عامّة وعملية تطبيقها فردية .

النتائج

1. التعبير اللغوي هوية الإنسان ومزيته وحقيقته وسجل حياته ومعيار فهمه وعنوان وجدانه ومقياس قدراته العقلية يجسد التعبير إنسانية الإنسان ويجدد تواصله ويقرر مصيره ويعزز كرامته ويكشف معتقداته ويعين سلوكه ويحقق تفكيره ووعيه بذاته .
2. التعبير خاص بنظمه وإنشاء علاقاته وإحداث نسبه وعام في لبناته وأدواته وفي إدراك مراميه وغايته وغرضه
3. للتعبير اللغوي أبعاد معنوية تتجاوز ماديته المحسوسة ، إذ المعاني تتداعى وتكثر بدليل المبالغة بالحذف والإضمار والإشعار والإلماح والتعريض والضغط والوقف والابتداء ونحو ذلك ، كما أنه له قوة ترفعه عن ماديته فتوصله بالمشاعر فتهتز به وبالعقول فتتأمل به ، لذلك كان التعبير اللغوي ميداناً لجميع الأبحاث المتعلقة بالإنسان .
4. للتعبير ظاهر وباطن ، لأنه صورة حقيقية للوجود كله ، فهو دليل كل خفي وحضور كل غائب ، وتاريخ كل حاضر وعاقبة كل حي ، تتفاعل فيه بناه التركيبية مع أحداثها بعلاقات تربط أجزاءه ليكون ظاهره مفسراً لباطنه وباطنه موجهاً لظاهره .
5. التعبير حصيلة كل تفكير وتأمل ، كما أنه موضوع كل دراسة وبحث وتأمل ، فهو إبداع خلاق ، وأساس كل حضارة ومعتقد وفكر وثقافة ، وفن ، وعلم وفلسفة .
6. التعبير عطاء زائد على الواقع الإنساني في صراعه الدائم مع الحياة في خيرها وشرها برؤية فردية قادرة على أن تصبغ الوجود بألوانها ، فتصنع بالرموز عالماً متخيلاً يعيش فيه الآخرون ويتمسكون به ويدافعون عنه .
7. التعبير تواصل نفاذ يتحدى الفناء والزمن والمكان ، ولا يخضع لمناهج المنطق والعقل لأنه من صميم الإنسان ولا يوهب له من الخارج .
8. التعبير تنظيم للمتناقضات وتأليف للعناصر المتباينة لأحداث صور تمكن العلاقات فيما بينها بحسب ما يأتلف وعناصر المقام وسياق الحال .
9. التعبير رابط يجمع الوجدان بالفكر والفرد بمجتمعه وبماضيه ومستقبله لتحقيق غاية تتعالى دائماً فوق واقعه المادي المحسوس بآفاق تهيمن عليها مدلولاته ، فلا يدرس لذاته بمعزل عن منتجه ، ولا تحلل أجزاؤه

---

[92] () اللغة : 295 .
[93] () اللغة بين المعيارية والوصفية : 16 .
[94] () الكشّاف : 1 / 546 .

لمعرفة مراده ، فإن ذلك يميته ، بل يعنى به متكاملاً لأن مفرداته ظللت بأنفاس صاحبه ووجدانه لتخلق منها شيئاً جديداً ، وهو لا يدرك معطوباً بالتجزئة .

10. العبارة وحدة التعبير ، لأنها اسم لما يعبر به المعنى ، والكلام اسم لما أفاد من التعبير قولاً أو كتابةً لارتباط القول باللسان نطقاً وبصراً بالكتابة لما قيد منه بالخط بتأثير فن الرسم بدليل علامات الترقيم .
11. إن التعبير إعراب نفسي وإبانة وكشف للإنسانية لتجليها به ، واللغة بأنظمتها الرمزية دليله فجعلت ظاهرته المادية المحسوسة وعلامة على ميل الإنسان به عن غيره .
12. التعبير شرع فردي ، لأنه إظهار شيْ من مكنونات النفس وقمع لغيره واللغة مناهج متعددة ، صوتية وصرفية ونحوية ودلالية بدليل معرفة اللغات الميتة كالسنسكرتية والإغريقية واللاتينية .
13. التعبير أصل اللغة وأساسها لأن الإفصاح عن الحاجات الإنسانية كان قبل صناعة الرموز الدالة عليها ، فإن النطق سابق على الخط والتقعيد اللغوي والأصول والتنظير .
14. اللغة تحيا بالتعبير ، وتتسع بكثرته وترقى بالإبداع فيه ، بدليل وصولها إلى منتهى الغاية في الكتب المنزلة فكانت وعاءً للعقائد والتجارب وصارت رابطة من أقوى الروابط الاجتماعية والتاريخية والفكرية والثقافية والنفسية وأخطرها على الإطلاق .
15. إن التعبير باللغة قوام الفكر والتأمل في الوجود كله لتمكنه في الكيان البشري ، لأن الكيان اللغوي حقيقة واقعة وطبيعية فيه ، بدليل قوله تعالى { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } [الذاريات 20 – 23] ، فلا حقيقة أظهر وأثبت من التعبير اللغوي ، ولا فكر حقيقي بلا تعبير ، لا جدال في ذلك ولا مراء . لأنه دليل الرأي والعقل والعزيمة والقدرة ، كما أنه دليل ما خالف ذلك ، كما قال تعالى { وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ } [الذاريات 7 - 9] ، والأفاك لا يعبر إلا بما يصرف الناس عن الحق ، لأنه مأفوك في نفسه فيقدر ما لا يصلح عقلاً في تعبيره عن الباطل لغفلته فاستحق الدعاء عليه في قوله تعالى { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ } [الذاريات 10 – 11] ، لأنهم من أصحاب القول المختلف .

المصـادر

القرآن الكريم .
1. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (685 هـ)، المطبعة العثمانية ، 1329هـ .
2. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1376هـ - 1957م .

3. تاملات في اللغو واللغة ، للدكتور محمد عزيز الحبابي ، الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس 1980 .
4. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للفخر الرازي ، دار الفكر ، بيروت ، ط3، 1405هـ - 1985م .
5. شرح الحدود النحوية ، للفاكهي ، تحقيق : د. زكي الألوسي ، بيت الحكمة ، بغداد .
6. الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، مكتبة القدس ، القاهرة .
7. الكشّاف ، للزمخشري ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 1367هـ - 1948م .
8. لسان العرب ، لابن منظور (711هـ) ، تحقيق : عبد الله علي الأكبر ومحمد احمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة .
9. اللغة ، ح . فندريس ، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي .
10. اللغة بين المعيارية والوصفية ، للدكتور تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .
11. معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ، تحقيق : د. عبد الجليل عبدة شلبي ، عالم الكتب ، ط1 ، 1408هـ - 1988م .
12. مناهج البحث في اللغة ، للدكتور تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء 1400 هـ - 1979 م .
13. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، للدكتور نهاد الموسى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت 1400هـ – 1980م .